لزوم مـــا لا يلزم

متى نُظم وكيف نُظم ورُتب ؟

للدكتور عبد الوهاب عزام

(بقية ما نشر في العددين السابقين)

رجحنا أن أبا العلاء شرع ينظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد كما قلت آنفاً . وقد عرفنا أنه ذكر سن الأربعين والخمسين كثيراً ولم يذكر الستين قط على برمه بالحياة وتعجله بالموت — ولو بلغها وهو ينظم اللزوميات لأكثر ذكرها — فسائغ أن نقول إن الرجل نظم اللزوميات من سن الأربعين إلى أن نيّف على الخمسين . وأما السبعون فأغلب الظن أنه لم يعن بها نفسه . وإن قدرنا أنه المعنى بها فقطعة أو قطع قليلة نظمت بعدُ وألحقت بهذه المجموعة التي نُظِمت كلها أو جلّها في السن التي قدرتُ .

ويؤيد هذا أن الحوادث التي ذكرها وقعت كما بينت في أوائل القرن الخامس ولم تتأخر عن سنة ٤٢٠ ، وكذلك الرجال الذين ذكرهم أحياء كصالح بن مرداس ومحمود بن سبكتكين ماتوا قريباً من هذا التاريخ . وقد رثى الوزير المغربي الذي توفي سنة ٤١٨ . وأشار إلى وفاة الحاكم بأمر الله وقد توفي سنة ٤١١ . فكل حادثة مؤرخة نجدها في اللزوميات تقع في العشرين الأول من القرن الخامس . وكل رجل ذكره الشاعر ذكر الأحياء هلك حول هذا التاريخ : صالح مات سنة ٤٢٠ ، ومحمود مات سنة ٤٢١

وأما مسعود بن محمود الذي تولى سنة ٤٢١ فقد ذكره مرة مع أبيه ولم يعد إلى ذكره . فهو لم ينظم في أيام مسعود بعد هلاك محمود ، أو لم ينظم إلا نادراً .

وأعزز بأمر يستأنس به مضموما إلى الأدلة السابقة ، أن أبا العلاء ذكر في مواضع من الكتاب أنه لم يشب ، وزعم أنه كان جديراً بأن يشيب ، وأنه لا يسره بقاء شعره أسود . يقول :

ويحمل الهم قلبي مُعفياً جسدي
وأسي أحمٌّ وظهري غيرُ مُنأطر

***

غرّك سود الشعرات التي في الوجه مني وأنا الدالف
كأنني شيمةَ عصر مضى هيهات منك المُصر السالف

***

أيا مَفرِقي هلاّ ابيضضت على المدى
فما سرّني أني بتُّ أسود حالكا
قبيح بفَود الشيخ تشبيه لَونه بفَود الفتى والله يعلم ذلكا

***

تأخُّرَ الشيبِ عني مثلُ مَقدمه
على سواي ووقت الشيب ما حضرا

***

ثم ذكر في مواضع كثيرة لا تقل عن عشرة ، شيبَ رأسه وبياضَ شعره ، مثل قوله :

نعنا على الشّيب فهل زارنا طيف لأصل الشرخ متتابُ

***

كانت مفارقُ جُون كأنها ريش غِربه
ثم انجلت فعجبنا للقار يُدلّ ضَربه

***

أأذهب فيكمُ أيام شيبي كما أذهبتُ أيام الشباب

***

قد شاب رأسي ومن نَبت الثرى جسدي
فالنبتُ آخر ما يعتـــو به الزهَر

***

أيها الشيب لا يريبُك من كفّي
مِقصٌّ ولا يُواريك خِطر
إن نهيتَ النفس اللجوجَ عن الإثـ
ـم وطابت فإنما أنت عِطر

فقد نظمت اللزوميات وشعره أسود ، ثم استمر النظم حتى

شاب . وهذا يلائم السن التي ذكرتها والتاريخ الذي حددته . ولو أنه نظمها كلها قبل الأربعين لما ذكر الشيب ، ولما استبطأه . ولو نظمها كلها بعد الخمسين لما ذكر المفرق الحالك والشعرات السود ولا يجوز أن يُدَّعى أنه نظم قبل الشيب واستمر ينظم حتى مات ، وسن الشيب متصلة بالموت . فقد دلت الأدلة الأخرى على أنه لم يستمر في النظم طول عمره .

ويمكن أن يقال : إن كان أبو العلاء فرغ من نظم اللزوميات أوركاد حين بلغ الخمسين فكيف ذكر الكبر متبرِّما ، وطولَ الثواء متململا ، وذكر دنو الأجل وقرب الرحيل ، وسقوط الأسنان ، في مثل قوله :

طال الثواء وقد أنَى لمفاصلي أن تستبدَّ بضمِّها صحراؤها

* * *

وما زال البقاء يُرِثُّ حبلي إلى أن حان للمَرَس انقطاع

* * *

أعلِّل مهجتي ويصيح دهري ألا تندو فقد ذهب الرفاق

* * *

تخلفتَ بعد الظاعنين كأنهم رأوك أخا وهن فما حلوكا

* * *

أيها النفس لا تُهالي شرخي قد مرَّ واكتهالي
لم يبق إلا شفاً يسيرٌ تُقرَّب من موردي نِهالي

* * *

في أجذت منه الليالي وإنني لأشرب منه في إناء مثلَّم

* * *

ربَّ متى أرحل عن هذه الدنيا فإني أطلت المقام

هذه الأبيات وأشباهها تصدر عن شيخ هِمٍّ ، بلغ أرذل العمر ، وذهب جيله وبقي وحده . ولكن المرء له شأن آخر ، فهو يَهيم بالحياة في عنفوانها ويقول .

شربت سنيَّ الأربعين تجرُّعا فيا مقِراً ما شربُه فيَّ ناجع

ويرى أن الحياة بعد الأربعين موت ، والوجدان فقد

حياتي بعد الأربعين منيَّة ووجدان حلف الأربعين فقود

فشكوى أبي العلاء من الضعف ، وهتافه بالموت ، ورمه بالحياة لا يدل كل حين على الشيخوخة أو الهرم .

وأما قوله :

في أخذت منه الليالي وإنني لأشرب منه في إناء مثلَّم

فسقوط الأسنان كثيراً ما يعرض في السن التي قدَّرتُ أنه نظم فيها الكتاب .

وقد ذكر سقوط أسنانه في رسالته إلى أبي الحسن بن سنان وقد تقدم إليه باختصار كليلة ودمنة بأمر عزيز الدولة . وعزيز الدولة قتل سنة ٤١٢ ، ولما يبلغ أبو العلاء الخمسين .

المبحث الثاني

ترتيب اللزوميات

— ١ —

وضع أبو العلاء خطة هذه المنظومة متكلِّفاً فيها ثلاث كُلَف كما قال في المقدمة : أن يلتزم في قوافيه حرفا لا يلزم ، وأن ينتظم حروف المعجم كلها ، وأن يستوفي في كل حرف الحركات الثلاث والوقف .

وقد تبيَّن من تاريخ الحوادث التي ذكرت في هذا النظم ومن تاريخ الرجال الذين ذكرهم ومن الأسنان المختلفة التي ذكرها أن الترتيب الهجائي لا يساير الترتيب الزمني . انظر إلى رويِّ الأبيات التي أثبتُّها فيما تقدم ، وإلى تاريخ الحوادث التي تتضمنها والأسنان التي تذكر فيها تر هذا واضحاً . فلا يسوغ أن نظن أن قطعة على روي الباء مثلا ينبغي أن يتقدم تاريخها على قطعة في حرف الميم ، وينبغي ألاَّ ينظر إلى الترتيب الهجائي في تتبع آراء أبي العلاء في لزومياته .

— ٢ —

ودليل آخر : أنَّ كثيراً من القطع المتوالية تتفق في الموضوع أو تتفق في الوزن والقافية بل تتفق في كلمات القافية أحيانا . فلو أنه نظمها ولاء لم يكن للفصل بينها وجه ، وكان يلزم أن تكون قطعةً واحدة ، ولو نظمها قِطَعاً متوالية لم يُجز لنفسه أن يكرر فيها القوافي والمعاني . فليس الفصل بينها إذاً إلا بأنها نظمت في أحيان مختلفة ثم جمعت .

أنظر إلى هاتين القطعتين ، وهما متواليتان على اللام المضمومة :

العقل يخبر أنني في لجّة ... من باطل وكذاك هذا العالم
مثلُ الحجارة في العظام قلوبنا ... أو كالحديد قلبها لا تألم

ويليها :

لم تلقَ في الأيام إلا صاحباً ... تأذّى به طول الحياة وتألم
ويُعدُّ كونُك في الزمان بليّةً ... فاصبر لها فكذاك هذا العالم

ويقول من قطعة في حرف القاف :

مرازبُ كسرى ما وقت مهجةً له ... وقيصر لم يمنع رداه البطارق

وفي قطعة تليها :

وهل أفلت الأيام كسرى وحوله ... مرازبه أو قيصر وبطارقه

فلو أن القطعتين نظمتا ولاء ما كرر هذا المعنى .

وأما القطع المتوالية المتفقة في الوزن والقافية ، والروى وحركته أو سكونه فكثيرة لا تحوج إلى التمثيل هنا . والأمر كله أبين من أن يطال فيه الكلام .

— ٣ —

وهنا نسأل : إن كان أبو العلاء لم ينظم على ترتيب الحروف والحركات فكيف ضمن الوفاء بما التزم من استيعاب الحروف وحركاتها ؟ إن كان قد نظم على الروى والحركة اللتين تعنّان له دون أن ينتقل من حرف إلى مايليه ومن حركة إلى مابعدها فكيف استوعب الحروف والحركات ؟

لنا أحد فرضين : إما أن الرجل كان يأمر كاتبه أن يثبت كل حرف في فصل على حدة ، وكان يستعيده قوافيَ هذا الفصل فيكمل نقصه حتى كملت الحروف والحركات ؛ وإما أنه جعل الكتاب كله مجموعة واحدة على غير تفصيل ، وكان يقصد إلى تغيير الحروف كل حين على غير ترتيب ؛ فلما اجتمع له مقدار كبير من المنظوم رتّبه وأكمل نقصه . وبهذا يُشعر قوله في المقدمة . وهذا حين أبدأ بترتيب النظم .

ونحن نجد في الكتاب قطعاً نظن أنها لم تنظم إلا لضرورة هذا الاستيعاب فالشاء المفتوحة ، والذال الساكنة ، والضاد المضمومة ، والطاء الساكنة ، والهاء الساكنة ، لم يَنظم في كل منها إلا بيتين اثنين وهما أقل ما ينظم لإنفاذ خطته . وقد قال هو هذا في آخر المقدمة

— ٤ —

نظم أبو العلاء ملتزماً ما لا يلزم ، ومستوفياً الحروف وحركاتها ، ورتب كتابه على الحروف وعلى حركات كل حرف ، وقال في آخر المقدمة :

« وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلا ؛ لكل حرف أربعة فصول . وهي على حسب حالات الروىّ من ضمّ وفتح وكسر وسكون ، وأما الألف وحدها فلها فصل واحد ، لأنها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو بالقطعتين ليكون قضاء لحق التأليف . وبالله التوفيق » .

وقد أدركت أنا بالتأمل في فصول اللزوميات ، ترتيباً آخر لم ينبّه إليه المرّى ، وهو ييسر على الباحث عن الأبيات في الكتاب ، زيادة على التيسير بترتيب الحروف والحركات ؛ ذلك أن الأوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبحر عند العروضيّين .

فنجد البحر الطويل في الفصل مقدماً على غيره ، والمتقارب مؤخراً عن غيره ، والأبحر بينهما على ترتيبها . وليس معنى هذا أنه استوفى في كل فصل الأبحر الخمسة عشر ، بل المعنى أن مايوجد من الأوزان في فصل يلتزم فيه الترتيب .

فالذى يبحث عن قطعة أو بيت على الراء المفتوحة — مثلا — لا يلزمه ، إذا عرف الوزن ، أن يبحث في أبيات الراء المفتوحة كلها ، بل يطلب البحر الذى فيه وزن القطعة أو البيت في موضعه من الراء المفتوحة . وذلك ييسر إذا عرف ترتيب الأبحر في العروض وهو أمر أتم .

* * *

هذا مابدا لي في تاريخ اللزوميات وترتيبها ، فمن بدا له ما يؤيد رأيي أو ينقضه ، فليتفضل مشكوراً بالإدلاء برأيه والإبانة عن حجته .

ووراء هذا بحث يجل في أمهات الأفكار التي ضمنها أبو العلاء لزومياته .